٥١ ـ المصريون المحدثون

شمـــائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

الفصل الخامس عشر

استعمال التبغ والبن والحشيش والأفيون الخ

إن تحريم الخمر بأنواعها في التشريع الإسلامي ، جعل المسلمين يلجأون إلى وسائل أخرى تسبب لهم نشوة خفيفة وضروباً مختلفة من الطرب الشديد

وأكثر هذه الوسائل انتشاراً في أغلب البلدان الإسلامية يسميه العرب « كيفاً » وهو تدخين التبغ ، ولا يمكنني أن أترجم هـذا اللفظ بأكثر من « لذة لطيفة » . ويبدو أن هذا التبغ أدخل إلى تركيا وجزيرة العرب وغيرها من بلاد الشرق قبيل القرن السابع عشر من الميلاد[1] أي بعد سنوات قليلة من انتظام تصديره كسلعة تجارية من أمريكا إلى أوربا الغربية . وكثيراً ما اشتد الجدل حول إباحة التدخين والمسلم[2] غير أن ذلك جائز الآن . وقد غير التبغ من طباع المدمنين عليه من الترك والعرب وجعلهم على الأخص أكثر كسلاً مما كانوا عليه قبلاً ، فهم يضيعون في تدخين شبكهم وقتاً طويلاً . إلا أنه كان ذا أثر آخر حسن ، فقد أغنى إلى قدر كبير عن استعمال النبيذ الذي يضر على الأقل بصحة سكان الأقاليم الحارة . وتقدم قصص ألف ليلة وليلة التي كتبت قبل استعمال التبغ في الشرق والتي تصور لنا بلا ريب عادات العرب وشمائلهم في ذلك الوقت تصويراً صادقاً ، تقدم هذه القصص أدلة وافرة على أن المسلمين وقتئذ أو في العصر السابق مباشرة كانوا يشربون النبيذ علانية . ويمكن أن نقول دفاعاً عن الشبك ـ كما يستعمله العرب والترك ـ أن أنواع التبغ الخفيفة التي يستعملونها عادة لها تأثير لطيف . فهي تهدئ الجهاز العصبي وترهف الذهن بدلاً من أن تبلده . ولا شك أن الشبك يتضمن كثيراً من ملذات الشرقيين ويقدم إلى الفلاح منعشاً رخيصاً زهيداً ويبعده في الغالب عن الملذات المضرة

وتعتبر القهوة ، نعيماً مماثلاً للتبغ وتؤخذ معه ، وقد ساعدا على جعل النبيذ أقل انتشاراً بين العرب . ويؤيد هذا الافتراض لفظ « القهوة » وهي تسمية عربية قديمة للنبيذ . ويقال إن هذا الشراب المنعش اكتشفه في الجزء الأخير من القرن السابع للهجرة أو الثالث عشر من الميلاد متعبد عابد الشيخ عمر دفعه الاضطهاد إلى أحد جبال اليمن مع بعض أتباعه ، وحمله الجوع إلى أن يشرب منقوع البن الذي ينبت هناك بالطبيعة . غير أن استعمال البن لم ينتشر في اليمن إلا بعد هذا الزمن بجيلين . وقد استوردت مصر البن بين سنتي ٩٠٠ و ٩١٠ هجرية أي في أواخر القرن الخامس عشر أو ابتداء القرن السادس عشر من الميلاد ، أو قبل إدخال التبغ إلى الشرق بجيل تقريباً . وكان يشربه حينئذ في جامع الأزهر فقراء اليمن ومكة والمدينة الذين وجدوا فيه منشطاً لهم على العبادة والتسبيح ، وكانوا يكفون على شربه بكثرة . وأدخل البن إلى الأستانة بعد ذلك بنصف قرن تقريباً[1] . وقد أثارت القهوة منازعات حادة بين المتعبدين والمتعلمين في جزيرة العرب ومصر والأستانة . فكان كثير من العلماء يؤكد أن القهوة لها خصائص مسكرة فتحرم على

(١) يقول الاسحاقي أن عادة التدخين بدأت تنتشر في مصر بين عامي ١٠١٠ و ١٠١٢ هجرية (١٦٠١ — ١٦٠٣ ميلادية)

(٢) يروى الجبرتي أنه كثيراً ما كان يحدث في عهد محمد علي باشا الكبير الذي ولي مصر ١١٥٦ إلى ١١٥٨ هجرية أن يجبر كل من يحمل شبكا على أكل حجر الشبك ومحتوياته الملتهبة . وقد يبدو هذا غير معقول لكن الأسنان القوية تستطيع أن تهشم حجر الشبك (المؤلف)

« وفي أيامه (أيام محمد باشا البدكشي) كتب فرمان بتحريم شرب الدخان في الشوارع وعلى الدكاكين وأبواب البيوت ، ونزل الأغا والوالي وأعوانهما بذلك وشددوا في الانكار والنكال بمن يفعل ذلك من عال أو دون ، وكان الأغا يشق البلد في التبديل كل يوم ثلاث مرات ، وكل من رأى معه آلة الدخان عاقبه وربما أطعمه الجمر الذي يوضع فيه الدخان بالنار » . انظر تاريخ الجبرتي الفصل الثاني في ذكر حوادث مصر وولاتها . الفقرة الخاصة بتولية محمد باشا البدكشي مصر (المترجم)

(١) أنظر دساسي De Sacy في : مختارات من الأدب العربي Chrestomathie Arabe الجزء الأول ص ٤٢٢ — ٤٨٣ الطبعة الثانية

المسلمين[١] بينما كان آخرون يقررون أن للقهوة فضائل ، إحداها مقاومة النوم فتكون عوناً قوياً للأتقياء على عبادتهم ليلاً . وكثيراً ما كان بيع البن حينئذ يحرم ويحلل حسب رأى الحاكم . أما الآن فيقول جميع المسلمين تقريباً بحل القهوة ، ويفرطون فى استعمالها ، وحتى الوهابيون الذين هم أشد المسلمين صرامة فى الحكم على التبغ والتمسك بأحكام القرآن والحديث وكانت القهوة تجهز قبلا من حب البن وقشره معاً . ولا تزال تعدّ فى جزيرة العرب منهما معاً أو من القشر فقط . وتحضر فى البلاد الشرقية الأخرى من الحب وحده يقلى ويطحن أولاً فأولاً .

فى القاهرة أكثر من ألف « قهوة »[٢] . والمقهى غرفة صغيرة ذات واجهة خشبية على شكل عقود[٣] . ويقوم على طول الواجهة ، ما عدا المدخل ، مصطبة من الحجر أو الآجر تفرش بالحصر ويبلغ ارتفاعها قدمين أو ثلاثاً وعرضها كذلك تقريباً . وفى داخل المقهى مقاعد متشابهة على جانبين أو ثلاثة . ويرتاد المقاهى أفراد الطبقة السفلى والتجار وتزدحم بهم عصراً ومساء . وهم يفضلون الجلوس على المصطبة الخارجية ويحمل كل منهم شبكه الخاص وتبغه . ويقدم « القهوجى » القهوة بخمس فضة للفنجان الواحد أو عشر فضة « للبكرج » الصغير الذى يسع ثلاثة فناجين أو أربعة[٤] . ويحتفظ القهوجى أيضاً بعدد من آلات التدخين من نرجيلة وشيشة وجوزة[٥] . وتستعمل هذه الأخيرة فى تدخين التمباك والحشيش الذى يباع فى بعض المقاهى . ويتردد الموسيقيون ، والمحدثون على بعض المقاهى فى الأعياد الدينية خاصة

(يتبع) عبد الحميد طاهر نور

(١) وقد نسب بعضهم إلى القهوة الاضرار بالعقل والبدن إلى غير ذلك من الدعاوى والتعصبات المؤدية إلى الجدال والفتن وحصول ما أدى إلى منع بيعها وكسر أوانيها بل وإلى تعزير باعتها بالضرب وغيره . أنظر الباب الأول من كتاب : « عمدة الصفوة فى حل القهوة » للشيخ عبد القادر محمد الأنصارى الجزيرى (المترجم)

(٢) يطلق لفظ القهوة ، وهو اسم الشراب على المكان الذى يباع فيه

(٣) أنظر الرسم الموجود فى الفصل الحادي والعشرين

(٤) وكثيراً ما يباع فى المقهى أيضاً فى ليالى الأعياد خاصة شراب الزنجبيل المحلى بالسكر

(٥) وصفت هذه الآلات فى فصل سابق

غروب . . . !

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

مَا لِي أَحِسُّ كَأَنَّ عُمْرِيَ فِي يَدِ الأَحْزَانِ يُطْوَى ؟!
نَفْسِي تَنَاهَبَهَا الشَّقَاءُ وَلَمْ تَجِدْ فِي الجِسْمِ مَأْوَى
قَلْبِي أَذَلَّتْهُ الجِرَاحُ فَمَا يُطِيقُ بِهِنَّ شَكْوَى
حُبِّي اسْتَحَالَ رِوَايَةً لِلدَّمْعِ يَعْصِرُهَا فَتَرْوَى
وَصِبَا غَرَامِيَ صَارَ أَبْعَدَ مِن مَشِيبِ الغَيْبِ شَأْوَا
أَغْدُو ، وَأُمْسِي ... وَالأَسَى نَارٌ أُذَابُ بِهَا وَأَكْوَى !
رَبَّاهُ ! مَا أَنَا ؟ ... هَلْ وُجِدْتُ عَلَى زَمَانِ النَّاسِ سَهْوَا !
سَوَّيْتَنِي رُوحاً ... تَمَرَّدَ أَنْ يَرَى الأَرْضَ مَثْوَى
وَأَنَا التُّرَابُ ! فَكَيْفَ صِرْتُ هَوَى، وَتَعْذِيباً، وَشَجْوَا !
شُرُفَاتُ غَيْبِكَ لَا يَتُحْنَ لِغَيْرِ مَنْ يَبْكِي دُنُوَّا
وَأَنَا إِلَيْكَ ذَرَفْتُ أَيَّامِي فَزَادَ دَمِي عُتُوَّا
وَرَأَيْتُ سِحْرَكَ فِي الوُجُودِ أَضَلَّ إِحْسَاسِي وَأَغْوَى !
النَّهْرُ جَبَّارٌ عَصَاكَ فَلَاحَ مَحْمُوماً تَلَوَّى
وَالعِطْرُ زِنْدِيقٌ يُذِيعُ عَذَابَهُ ... وَيَقُولُ : سَلْوَى !
وَالطَّيْرُ مَجْرُوحُ الغِنَاءِ وَيُلْبِسُ الآهَاتِ صَفْوَا
وَالرِّيحُ جِنٌّ آثِمٌ وَخَزَتْهُ زَلَّتُهُ فَدَوَّى ...
... وَطَوَى الفَضَاءَ مُزَمْجِراً مُتَضَرِّعاً يَسْتَلُّ عَفْوَا !
وَالشَّمْسُ مَسْلُولٌ تَلَفَّعَ بِالغُيُومِ وَدَسَّ بَلْوَى ...
... قَلِقَتْ عَلَى شَفَقِ المَغِيبِ كَأَنَّهَا فِي النَّارِ تُشْوَى !
وَاللَّيْلُ أَقْبَلَ يَمْلَأُ القِيعَانَ أَسْرَاراً وَنَجْوَى ...
وَأَنَا الغَرِيبُ شَرِبْتُ أَحْزَانِي فَقِيلَ : شَرِبْتُ لَهْوَا
وَبَكَيْتُ حَتَّى خِلْتُ أَجْفَانِي مُعَذِّبَتِي وَنَشْوَى !
مَاذَا رَجَائِي فِي الحَيَاةِ إِذَا انْتَهَى مَا كُنْتُ أَهْوَى
وَوَقَفْتُ أَحْفِرُ لِلْجِرَاحِ طَرِيقَهَا ... فَتَعُودُ شَدْوَا !

محمود حسن اسماعيل